التطور الدلالي لمعاني السخرية بين القدماء العرب والمحدثين*

د. حسن طاهر أبو الرُّب**

*تاريخ الاستلام: 2017/9/18م، تاريخ القبول: 2017/10/17م.
** أستاذ مساعد/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين.

ملخص:

يعدّ التطور الدلالي للألفاظ جزءاً مهماً من علم الدلالة، واللسانيات الحديثة، وهو يعكس جانباً مهماً من حياة اللغة، ويدلّ على درجة استعمال بعض الألفاظ كثرة وقّلة، ويصل الماضي بالحاضر. ولا ريب أنّ التطور الذي تشهده حياة الإنسان ينعكس على تطور الألفاظ والدلالات التي يستعملها. ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على واحد من هذه الألفاظ التي أصبحت مصطلحاً استعمله مفسرو القرآن، واللغويون والنقاد، وذهبوا فيه مذاهب شتى، ولم يتفقوا على رؤية واحدة، ألا وهو (السخرية). ويكشف البحث عن نظرة القدماء من لغويين، وبلاغيين ونقاد وأدباء لدلالات السخرية، وما وجه الخُلف بينهم؟ وما وجه التشابه فيما ذهبوا إليه؟ وما سبب هذا الاختلاف؟ وما العوامل التي أثّرت وتؤثر في دلالة هذا المصطلح؟ وهل تغيرت دلالاته لدى المحدثين اليوم؟

الكلمات المفتاحية: التطور الدلالي، السُّخرية.

The Semantic Evolution of Irony Indications among the Ancient Arabs and the Modernists

Abstract

The semantic development of words is an important part of the semantics and modern linguistics. It reflects an important aspect of the life of a language, and indicates the level to which some words are being used frequently or infrequently. It also serves as a link between the past and the present. There is no doubt that the evolution of human life is reflected in the evolution of used words and their connotations. This research sheds light on one of these words, which has become a term used by Holy Qur'an exponents, linguists and critics. They have gone through various doctrines and have not agreed on a single vision. This term is irony. Therefore, this paper reveals the perception of the ancients, the rhetoricians, the critics and the writers towards irony. To that end, the paper has raised three questions: What are the similarities and differences between them? What are the factors that affected the significance of this term? Has its connotation changed among modernists today?

***Keywords**: Semantic development, irony.*

مقدمة:

كلّ شيء في الحياة قابلٌ للتغير، فلا يثبت شيء على حاله، بمضي الأيام وتعاقب السنين، إذ إنّ الحياة في خلقها الأزلي أقيمت على هذا المنهج! والخالق الحكيم هو الذي يضع مقادير الأشياء في زمانها ومكانها وعيشها وموتها. وما تزال اللغة في حياتها ونشاطها وخمودها وفنائها معقودة بحياة الإنسان ارتفاعاً وهبوطاً.

إنّ التطور اللغوي والدلالي في معناه العميق هو شكلٌ من أشكال تطور تلك الحياة، فما يصيب حياة الإنسان ينعكس في لغته، لذا نجد الرحلة اللغوية للإنسان طويلة ومختلفة الأشكال، سواء في الأصوات أو في دلالات المفردات أو في الزيادة التي تكتسبها أو النقصان الذي يطرأ عليها، كلّ ذلك محكومٌ بالعوامل التي تؤثر في حياة الشعوب في مجالاتها كافة[1].

إن الدارس لكتب اللغة والدلالة، يكاد يلمح اتفاقاً لدى العلماء على معنى التطور الدلالي، ويجد أن هذا المعنى لا يخرج عن التغير الذي يصيب المفردات والتراكيب سواء أكان في بنائها أم دلالتها[2]. فاللغة كما قال (إستيفن أولمان): (ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال، على الرغم من أن تقدمها يبدو بطيئًا في بعض الأحايين. فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور لكنّ سرعة الحركة والتغير هي التي تختلف من فترة زمنية إلى أخرى)[3]. ومن الأمثلة على ذلك، التغير الذي اعترى كثيراً من الألفاظ نتيجة مجيء الإسلام؛ فأصبح هناك ما يسمى بالمفهوم الشرعي، وصار لدينا ثلاثة مفاهيم للمفردة، مفهوم لغوي في الأصل والبناء، ومفهوم اصطلاحي اصطلح الناس عليه وتعارفوا وأصبح شائعاً، ومفهوم شرعي أحدثه الإسلام. وقد أتى أحمد بن فارس رحمه الله على ذلك حين قال:(.. فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق...)[4]، ومثل ذلك أيضاً: الصلاة والزكاة والصوم والحج. وذكر أبو هلال العسكري في الأوائل شيئاً من هذا حين قال:(وقد حدثت في الإسلام معانٍ وسُمّيتْ بأسماء كانت في الجاهلية لمعانٍ أُخَر، فأولُ ذلك القرآنُ والسورة والآية والتيمم..)[5]. لذا يأتي هذا البحث، ليتعرض لمصطلح شاع على ألسن الناس؛ العامة والخاصة، المتلقين من جمهور، والمرسِلين من أدباء ونقاد ولغويين، ألا وهو « السُّخرية).

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في تناولها لمصطلح يعدّ من أكثر المصطلحات الأدبية شيوعاً، لارتباطه بدلالات مفردات أخرى كالهجاء والاستهزاء، والتحقير، والتهكم، والتفكه، والتندر. وفي تبيانها العلاقة الدلالية بين هذه المفردات من خلال النظر في المعاجم الأصيلة، والنظر في آراء أهل اللغة، والبلاغة، والأدب، وما حدث لها من تطور اليوم لدى المحدثين.

منهج الدراسة:

يقوم منهج الدراسة على كشف دلالات السخرية في معاجم اللغة، وبيان نقاط الاتصال الدلالي مع المفردات التي استعملها القدماء ردفاً لهذا المصطلح، ظانين أنها تحمل الدلالة نفسها، وتبين الدراسة التطور الدلالي لهذا المصطلح منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحديث، موضحة ذلك بإيجاز في عرض الشواهد وبيان ما فيه من دلالات. فهي تقوم على المنهج الوصفي، وتستعين بالمنهج التاريخي لتتبع التطور الدلالي للمصطلح.

الدراسات السابقة:

الحقّ، أنّ هناك كثيراً من الدراسات الحديثة التي عالجت السخرية في الأدب العربي، لكنها دراسات كان همّها الأكبر الإيتاء بالشواهد الشعرية التي تتصل بالهجاء وألوانه تحت معنى السخرية؛

لذا فهي عزفت عن بيان العلاقات الدلالية بين المفردات القريبة من السخرية، وتتبع التطور الدلالي لهذا المصطلح، عبر مراحله الزمنية، وهي ترى أنّ هذا المصطلح هو مرادف لبقية المفردات كالاستهزاء والهجاء والتهكم والتفكه وغيره من مفردات قريبة في الدلالة. **ومن أهمّ هذه الدراسات:**

- حفني، عبد الحليم، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة 1987م)
- الضمور، نزار: السخرية والفكاهة في النثر العباسي، دار حامد (عمّان، 2012م)
- طه، نعمان : السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري، القاهرة، (المطبعة التوفيقية، 1978م)
- عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك، (الكويت، 2003)
- عزاب، سعيد: السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، دار العلم والإيمان، (القاهرة، 2010م)
- الغزالي، شعيب بن أحمد، أساليب السخرية في البلاغة العربية، جامعة أم القرى، (السعودية، 1414هـ،
- فشلاقي، جمال طالبي، وآخرون: السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية، العدد 25، 2012م.

مخطط البحث:

تقوم خطة البحث على معالجة ثلاثة محاور أصيلة وخاتمة، أمّا المحاور فهي:

- دلالات السخرية في الأدب والمعاجم
- التطور الدلالي للسخرية عند القدماء
- دلالات السخرية عند المحدثين

أولاً: دلالات السخرية في الأدب والمعاجم:

1. في الأدب:

السُّخرية في الأدب ليست غرضاً من الأغراض الأدبية؛ فهي وسيلة يُعبّرُ بها عن حالة نفسية يمرّ بها الأديب، تعبيراً عما ينتابه من مشاعر وأحاسيس، أمام موقف من المواقف. لذا، يعدّ هذا المصطلح فَضفاضاً في فضائه الدلاليّ، تستكنّ فيه كثيرٌ من المُسميّات الأخرى، كالفكاهة، والاستهزاء، والإضحاك، والتحقير، والإذلال، والاستخفاف، والتهكم، على ما في هذه المُسمّيات من فروق دلالية. بيدَ أنْ الذي يحدد دلالة المقصود في تركيب ما، هو السياق النفسي، بالاستعانة بالألفاظ المستخدمة.

ولعل أكثر غرض أدبي ارتبطت به السخرية ارتباطاً وثيقاً هو فنّ الهجاء، لذا نجدَ أصحاب المختارات حين وضعوا مختاراتهم الشعرية في طبقات، كان الهجاء واحداً منها، ولعل أبا تمام الشاعر أول من وضع للهجاء باباً في حماسته [6] واختار مجموعة من الشعراء عُرفوا بهذا الغرض.

حين يكون غرض نصّ أدبي ما، هو المدح على سبيل المثال، فإنّ الشاعر يستعين بما أوتي من قدرة وعبقرية في رفع الممدوح وإعلاء شأنه، وتجميل صورته والتغني بشمائله، لذا فقد يأتي على صورته الحسيّة، فيزيدها جمالاً وإشراقاً، ويأتي على صورته الداخلية فيصف ذكاءه وقوة بصيرته، وشجاعته وكرمه وحلمه وصبره، ويأتي على حاضره وماضيه، وأثره في مجتمعه، فينتقي أجمل الأفعال، وأحسن الأوصاف، وكلما كان الأديبُ يُصْدِرُ ذلك من قلب صادق ومشاعر متقدة، كانت معانيه أشدّ أثراً في المتلقي، والعكس صحيح.

ومثلُ المدح الهجاء والذم، غير أنّ مشاعر الإعجاب والمحبة هناك، يقابلها هنا مشاعر النقمة والسخط والغضب، فغاية الأديب هنا الحطّ من المهجو، والتقليل من شأنه، لذا لا يترك وسيلةً فيها إيلام للخصم إلاّ استلّها ورمى بها خصمه، وسيلة ملآنة بذاك الغيظ والسخط الذي يثور في نفسه. وكلما كانت درجة السخط والنقمة مرتفعة، كانت الرمية مؤلمة والعكس صحيح. وقد يتكئ الأديب وهو يحمل هذه المشاعر المتأججة على وسائل عدة؛ منها السخرية، فيرسم لوحة مُضْحكةً هازئةً بخصمه، يُنفّسُ بها الضيق الذي يشعرُ به، ويُسددُ ضربةً مؤلمةً لمشاعر خصمه، فيجْعَلُه محَطَّ استخفافٍ وفكاهة للآخرين.

فالساخرُ دائماً يحاولُ الحطَّ من شأن خصمه وتذليله[7]. لكنّ الأرجح أن هذا المصطلح لم ير الشيوع إلاّ في عصر تدوين العلوم والأدب، الشيوع الذي يجعله مستقلاً في دلالته الأدبية عن غرض الهجاء الذي شاع عند العرب منذ الجاهلية. وسيظهر هذا التطور جلياً عند الحديث عن تطور دلالاته عبر العصور.

السُّخرية في المعاجم العربية:

الناظر في المعاجم العربية، لا يجدُ اختلافاً كبيراً في المعاني التي يدلّ عليها لفظ السخرية، فهذا صاحب المقاييس[8] يقول في باب (سَخِرَ) السين× والخاء والراء أصلٌ مطّرد مستقيم يدلُّ على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا سَخَّر الله عزَّ وجَلَّ الشيء، وذلك إذا ذَلَّله لأمره وإرادته. قال الله جلّ ثناؤه: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) ثم يعقب بقوله: ومن الباب: سَخِرت منه، إذا هزئت به [9] ويرى الزمخشري[10] أنّنا نقول: فلانٌ سُخْرَةٌ وسُخَرَةٌ بمعنى يضحكُ منه الناس ويضحك منهم. ويرى ابن منظور [11] أنّ السخرية من قولنا: سَخِرَ منه وسَخِرَ به، كفَرِحَ، سَخْراً وسَخَراً وسُخْرَةً ومَسْخَراً وسُخْراً وسُخُراً: هَزِئَ، والاسْمُ السُّخْرِيَةُ والسُّخْرِيُّ، ويجوز ضمّ السين وكسرها. وأورد ابن منظور رأي الأخفش حين يقول: سَخِرْتُ منه وسَخِرْتُ به، وضَحِكْتُ منه وضحكت به، وهَزِئْتُ منه وهَزِئْتُ به، وحين ننظر في القاموس المحيط[12] لا نجد زيادة عما أورده ابن منظور حين يقول: (سَخِرَ منه و به، كفَرِحَ، سَخْراً وسَخَراً وسُخْرَةً ومَسْخَراً وسُخْراً وسُخُراً: هَزِئَ، كاسْتَسْخَرَ. والاسْمُ السُّخْرِيَةُ والسُّخْرِيُّ، ويكسرُ..) وفي صحاح الجوهري[13] نجد التفسير نفسه: (سَخِرْت منه أَسْخَرُ سَخَراً بالتحريك، ومَسْخَراً وسُخْراً بالضم. والتأنيث للكلمة... والتَسْخيرُ التَذْليلُ.

وتأسيساً على ما تقدّم، نلحظُ أنّ السخرية تتصل بدلالتها في مجموعة من الألفاظ وهي:

[الضَحِكُ، والاستهزاء، والاحتقار، والاستذلال، أو التذليل] كما يرى الجوهري. ولا بدّ من النظر في دلالة هذه الألفاظ لنرى هل تتصل السخرية بها، كما اتصلت هي بالسخرية؟

♦ **الضحك:**

قال صاحب المقاييس[14]: الضاد والحاء والكاف قريبٌ من الباب الذي قبله، وهو دليل الانكشاف والبروز. من ذلك الضَّحك ضَحك الإنسان. ويقال أيضاً الضَّحْك، والأوَّل أفصح. والضَّاحكَة: كل سنٍّ تبدو من مُقدَّم الأسنان والأضراس عند الضَّحك. قال ابنُ الأعرابيّ: الضَّاحك من السَّحاب مثلُ العارض، إلاَّ أنَّه إذا بَرَقَ يقال فيه ضَحِك. والضُّحُوك الطَّريق الواضح. ويقال أَضْحَكْتَ حوضَك، إذا ملأتَه حتى يفيض. ويقال في باب الضَّحك: الأُضحوكة ما يُضحَك منه. ورجلٌ ضُحْكة: يُضْحَك منه. وضُحَكَة يكثر الضَّحَك. فأمَّا الضَّحْك فيقال إنَّه العَسل. ومثل هذا حكى الجوهري[15]، وصاحب القاموس المحيط [16]، غير أنّ الأخير أضاف إلى هذه المعاني قوله: (وضُحْكَةٌ، بالضم: يُضْحَكُ منه. والضَّحَّاكُ، كشَدَّاد وهُمَزَة: ذَمٌّ. والضُّحْكَةُ: أَذَمُّ. وأَضْحَكْتُه، وهُمْ يَتضاحَكونَ. وأضاف الزمخشري [17] بعض المعاني المجازية حين قال: (افترّ عن ضاحكته وضواحكه وهي ما تقدّم من أسنانه وبدتْ مباسمُهُ ومضاحكُهُ، وضَحِكَ ضَحِكاً وضَحْكاً واستضحَكَ وتضاحَكَ وتضحَّكَ، ورجلٌ ضحّاكٌ وضحكوكٌ وضُحَكَة وأخوه ضَحْكَة مضحوكٌ منه، ومن المجاز ضحكت الأرض عن النبات وضحكتْ الرياض عن الزهر وضحِكَ العارض، وسحابٌ ضاحك..). ونخلص من كلّ هذا، إلى أنّ هناك فرقاً دلالياً بين السخرية والضحك، فليس كلّ ضحك سخرية، لذا نرى في قول الجوهري الساب(أنّ الضحّاك ذَمٌّ، والضُحْكَةُ أذمّ) وصلاً بين السخرية والضحك، لكنه وصلٌ مقيّد وليس مُطلقاً! فالرجل لا يُسمى ضُحْكَة إلاّ إذا كان فيه مثار سخرية من الآخرين، لذا فالضحك المتصل بالسّخرية هو الضحك المتصلُ بقصد إثارة المخاطب على أمرٍ يخصّ المضحوك منه.

♦ **الاستهزاء:**

وهو من الفعل (هَزَأَ)، قال صاحب المقاييس[18]: الهاء والزاء والهمزة كلمة واحدة. يقال: هَزِئَ واستهزَأَ، إذا سَخِرَ. وعند الجوهري (19) الأمر نفسه حين يقول: الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُخْرية. تقول: هَزِئْتُ منه وهَزِئْتُ به، عن الأخفش. واسْتَهْزَأْتُ به، وتَهَزَّأْتُ وهزأت به أيضاً، هُزْءاً ومَهْزَأَةً. وحين نبحث عن معنى الاستهزاء لدى ابن منظور نجده يقول: (هَزَأَ): الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ. هُزِئَ به ومنه. وهَزَأَ يَهْزَأُ فيهما هُزْءاً وهُزُؤاً ومَهْزَأَةً، وتَهَزَّأَ واسْتَهْزَأَ بِه: سَخِرَ[20]. وكذا فعلت جلّ المعاجم العربية في تفسيرها لمادة (هَزَأَ)، ما يؤكد هذا الاتصال العميق بين هذه الألفاظ فيما يخص دلالتها. فجميع هؤلاء وغيرهم، يُفسّرون الاستهزاء بالسخرية، ما يدلّ على اتصال وثيق بين اللفظين في الدلالة.

♦ **الإذلال أو التذليل:**

اللفظان من أصل (ذلّ) بتشديد اللام، يقول صاحب المقاييس[21]: الذال واللام في التضعيف والمطابقة أصلٌ واحد يدلُّ على الخُضوع، والاستكانة، واللِّين. فالذُّل: ضدّ العزّ. وهذه مقابلةٌ في التضادِّ صحيحة، تدلُّ على الحكمة التي خُصَّتْ بها العرب دون سائر الأمم؛ لأنّ العزّ من العَزَازِ، وهي الأرض الصُّلْبة الشديدة.

والذِّلُّ خلاف الصُّعوبة. وحُكي عن بعضهم أنَّه قال: (بعضُ الذِّلِّ–بكسر الذال–أبْقَى للأهْلِ والمال). يقال من هذا: دابّةٌ ذلولٌ، بيِّن الذُّلِّ. ومن الأوّل: رجلٌ ذليلٌ بَيِّنُ الذُّلّ، والمَذَلّة، والذِّلّة. ومثل هذا حكى الجوهري والزمخشري وصاحب القاموس المحيط وصاحب اللسان في مادة (ذَلَلَ). ويُفهمُ من هذه الدلالات أنّ دلالة لفظ الإذلال أو التذليل ليست هي نفسها دلالة السّخرية، لكنّ الراجح أنّ الدلالتين تتصلان بخيط خفيّ، فالذليل غالباً ما يُسْخَرُ منه، وعليه فإنّ الّذلة حدثٌ ناتج في بعض الأفعال عن السخرية. إذ من دواعي السخرية أن يكون الشخص ذليلاً يستهان به ولا شأن له. ولعلّ الزمخشري[22] كان الأقرب إلى هذا الربط حين قال في تفسيره لدلالات (ذَلَلَ): هو ذليلٌ بين الذُّلّ والذِّلّة، والمذّلّة، وقد ذلّ له وتذَلّلَ وأَذَلَّه الله وذلَّلَهُ. واستذَلّه العدوُ وهو مُسْتَذَلٌّ بينهم: مُستهانٌ. فقوله (مُستهانٌ) أي هيّن على الناس، يُسْخَرُ منه.

ونلحظُ مما تقدم أنّ لفظ الاستهزاء هو الأقرب في دلالته إلى السخرية، بل يكاد يكون مرادفاً له، بينما الضحك مقيدٌ في بعض حالاته التي قد تكون سخرية، أمّا الإذلال أو التذليل فهو من بواعث السخرية، والسخرية لاحقة به، وليست مرادفة له. وهذا برأيي هو التفسير الأقرب للمنطق في بيان العلاقات الدلالية بين هذه الألفاظ.

ثانياً. التطور الدلالي للسخرية عند القدماء:

1. في الأدب القديم:

الناظر في كتب القدماء من مصنفات شعرية ونثرية ولغوية ونقدية وبلاغية، يجدُ أن مصطلح السُّخرية استُعْمِلَ في لفظه ومعناه؛ استعمالاً لا نستطيع أن نصفه بالشيوع، إذ لو قلنا لم يستعملْ، لفُهِمَ من النفي الإطلاق في الحكم! ولو قلنا استعمل، لفُهِمَ الشيوع، والقول الصحيح أنّه استعمل، لكنْ بقلّة نادرة في لفظه ومعناه، وذلك فيما توصلنا إليه من دراسات، تهيأ لنا الاطلاع عليها.

ومن أجل التحقق من ذلك، لا بدّ من الاطلاع على ما شاع في العصور القديمة من هذا الاستعمال، فإلقاء نظرة متفحصة على تدرج إطلاق المصطلح في كل عصر كافٍ لمعرفة نسبة الشيوع، فذلك وحده الذي يعين الباحث وسائر المهتمين على معرفة الصواب في الحكم.

في العصر الجاهلي، كان الشعر بضاعة العرب، وديوان مآثرهم، وكان الهجاء واحداً من الأغراض الرئيسة التي يذبُّ بها الشاعر عن نفسه وأهله وقبيلته، وقد عاش العرب بعادات وتقاليد وشمائل حَكَمَتْ حياتهم، فخروا بها، ودافعوا عنها، كقوة القبيلة والأنساب والأعراض والحمى، والشجاعة والجاه والنخوة والكرم والحكمة والصدق والوفاء، هذا ما تعارف عليه العرب، ولم يشذّ عنه إلاّ طائفة منهم تمرداً على قبائلهم، وكان أمرهم خروجاً عن مألوف الحياة العربية.

وإذا كان من واجبات الشاعر أن يمدح ويفخر وينشر فضائل نفسه وقومه، كان عليه أن يهجو من يتعرض له ولقبيلته، هجاءً منوطاً بدرجة التعرض، فإن دنى كان عتاباً، وإنْ ارتفع كان هجواً عليه وعلى قبيلته، وكان على الأغلب يصبّ في صفات المُتعرِض الخَلْقية والخُلُقية.

ولعل أقدم صور الهجاء التي عُرفت في الجاهلية ما عُرِفَ بالمنافرات، أيْ أن يتحاكم الخصمان إلى شيخ مُحكّم أو فريق فيفخر كل منهم بنفسه وقبيلته ويهاجم الآخر، حتى إذا انتهيا من التنافر حكَمَ الشيخ أو الفريق لأحدهما على الآخر. ومن هنا سُمِّيَت منافرة؛ فكأنّ كلّ واحد ينفرُ أي يهبّ للدفاع عن نفسه وقبيلته، وقيل: بل لأنّ

كل واحد كان يقول عند البدء أنا أعزّ نفراً [23]. ومن أشهر الأسواق التي عرفت ذلك، سوق عكاظ؛ وقد روى ابن منظور أن (عكاظ) سُميت بهذا الاسم لأن العرب كان تجتمع فيها للمفاخرة، وهو من عَكَظَ نقول: عَكَظَ دابَّتَه يَعْكِظُها عَكْظاً: حبَسها. وتعَكَّظ القومُ تَعَكُّظاً إذا تَحَبَّسُوا لينظروا في أُمورهم، وعَكَظ خَصْمَه باللَّدَد والحُجَج يَعْكِظه عَكْظاً: عَرَكه وقَهَره. وتَعاكَظَ القومُ: تَعارَكُوا وتَفاخَرُوا.

ويروي ابن منظور عن الليث والأزهري أنها سميت عُكاظاً لأَن العرب كانت تجتمع فيها فيَعْكِظ بعضُهم بعضاً بالمُفاخَرة

وَلي ابْنُ عَمٍّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُـــــــقٍ ... مُخْتَلِفَـــــــانِ فَأَقْلِيه وَيَقْلِيني
إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَـقٍ ... عَنِ الصَّـدِيقِ وَلا خَيْرِي بِمَمْنُونِ
وَلا لِسَـانِي عَلَى الأَدْنَى بِمُنْطَلِقٍ ... بِالمُنْكَـرَاتِ وَلا فَتْكِي بِمَأْمُـونِ

فهو يفخر بلسانه الذي يستطيع فيه أن يردّ على ابن عمه، رداً قوياً، لكنّ أخلاقه تمنعه من ذلك، وهو ردّ عاقل يخلو من ألوان السخرية المعروفة، ومنه ما يكون شخصياً في ظاهره وعاماً في باطنه، كهجاء الأعشى لعُمَير بن عبد الله بن المنذر حين جمع بينه وبين جَهّنام، وكلاهما من قيس بن ثعلبة البكري، يقول الأعشى[26]:

لئِـنْ جـدّ أسـبابُ العـداوةِ بيْنـــــنَا ... لَتَرْتَحِلـنّ منـي علـى ظهـرِ شـيْهَمِ
وَتَرْكَـبَ منـي إنْ بلـوتَ نكيثتـي ... علـــــى نَشَـزٍ قد شـابَ ليس بِتَوْءَمِ
فمـا حَسَـبي إنْ قِسْـتَهُ بِمُقَصِّـرٍ ... ولا أنـــــا إنْ جـدّ الهجـاءُ بِمُفْحَـمِ

والأعشى يقرع خصمه بقوة، حين يُعْلِمُهُ أنّ عليه الارتحال على ظهر القنفذ (شيهم) الحيوان المعروف بشوكه الحاد، أو على فرس جموح ليس بتوءم، وهو أشدّ في المراس، وسيجدّ الخصم بعد ذلك استعداد الأعشى للهجوم، لأنه لن يرضى أن يظلّ ساكتاً لا يدافع عن نفسه. والصحيح أنّ في ردّ الأعشى هذا صورة حسيّة مستوحاة من البيئة، لكن فيها ما يشي بالسّخرية، حين نتخيل الخصم يركب قنفذاً، أو فرساً جموحاً لا يستطيع قيادته. ومن الشعراء الذين كان يُحسبُ حسابهم في الجاهلية أيضاً، الحطيئة، الذي احترف الهجاء واتخذه تجارة ومعاشاً، وكانت القبائل تخشى لسانه، لذا كانت تعطيه ما يريد كي تسلم من لسانه، وقد روي أنه مرّ ذات يوم بقوم عُيينة بن النّهاس العجلي، فلم يعرفوه، وتجاهلوه، حتى إذا سار، عَلِمَ عُيينة هذا أنه الحطيئة، فأسرع إليه وأعطاه شيئاً ليس بالقليل أو الكثير، فقال الحطيئة [27] دون تحفظ:

سُـئلتَ فلـم تبخـلْ ولم تُعـطِ طائلاً ... فَسـيانِ لا ذَمٌّ عليـكَ ولا حمْـــدُ
وأنـتَ امـرؤٌ لا الجـودُ منـك سـجيّةٌ ... فتعطـي وقد يُعدي علـى النائل الوُجدُ

وفي هجائه لقدامة العبسي، صورة تمور بالتهكم، يقول [28] :

قدامـةُ أمسـى يعْـرُكُ الجهـلُ أنفَـهُ ... بجـــــــــدّاءبهـــــــاأنفُفاخرِ
فخـرتم، ولم نعلـمْ بحـادثِ مجْدِكـمْ ... فهاتِ هلـمَّ بعـــــــــــدها للتنافرِ
وأنتـم أُولى جئتـم مـع البقـلِ والدّبـا ... فطـار وهـذا شخصُـكم غـير طائـرِ

فالحطيئة، يرسم صورة ساخرة لهذا الرجل، الذي يبدو متظاهراً بالأنفة والكبرياء دون مسوغ لذلك؛ فهو جاهل يحكّ أنفه متفاخراً بالجدب والجفاف والفقر الذي أتى منه مع قومه، ولا يعلم الشاعر السبب الذي جعل قدامة يفتخر، فليس له مجدٌ ولا لقومه، وإنْ كان هناك مجدٌ، فهو يدعوه للتنافر أي المفاخرة، علماً أن مجدهم مصطنع زائف، فهم جاؤوا كالبقل الذي ينبت في الربيع، ويندثر في الصيف، أو كالجراد الذي لا يقيم بمكان وهو دائم الترحال حين يطير، لكنّ قدامة وقبيلته أقلُّ من الجراد لأنهم لا يطيرون! والسخرية في الأبيات كامنة في تشبيه الشاعر لهم بالجراد والبقل، وما اتصل في دلالاتها من معاني التحقير والتهوين والاستهزاء.

ونجد بعض صور السخرية كذلك في قول المتلمس حين هجا عمرو بن هند وجعل أسنانه في سوادها وصِغرها كحبّ العدس،

وحين جعله من أخسّ كلاب الصيد، فليس في عنقه قلادة، بل حبلٌ، يقول[29]:

قولــنْ لعمــرو بــن هنــدٍ غــير متّــــئبٍ ... يــا أخنســَ الأنــفِ والأضراســُ كالعدس
لــو كنــتَ كلــبَ قنيصٍ كنــتَ ذا جُــدَدٍ ... تكــــــــــــــــــونُأُرْبَتُهُفيآخرالمَرَس
يعــوي حريصــاً يقــولُ القانصــان لــه: ... قُبِّحْــتَ ذا وجــــــــــهٍ أنفٍ غير مُنْتكس

وحين ننظر للحركة الأدبية في الجاهلية نجدها تابعة لكل ما يجري، فهي تغرف من الحاضر لتصفه وتقدمة في مادة فنية جديدة، لتؤدي غرضاً مؤقتاً ؛ إما لنيل إعجاب ممدوح، أو لإرضاء أذواق الخاصة، أو للردّ على خصوم، وقد كان الهجاء واحداً من تلك الفنون التي يستعملها شاعر القبيلة للرد على خصوم قبيلته، فالهجاء فنٌّ كان يُقْصَدُ قصداً كسائر فنون الشعر الأخرى كالمدح والغزل والرثاء، لذا نجد له مكانة كبيرة في نفوس القبائل، فكانوا يحسبون له ألف حساب، وقد روي أن بني العجلان الذين كانوا يباهون بلقب جدّهم وهو عبد الله بن كعب العجلان، وقد سُمّي بذلك لتعجيله القِرى للأضياف، وبقي هذا اللقب مصدر فخر وعزة وكبرياء حتى هجاهم قيس بن عمرو النجاشي بقوله[30]:

أولئكَ أخــوالُ اللعــينِ وأســرّةُ الهجينِ ... ورهــطُ الواهــنِ المُتّــــــــذلّــلِ
ومــا سُــمّي العجــلانُ إلا لقولهــم ... خــذْ القعــبَ واحلبْ أيّهــا العبــدُ واعْجِلِ

فأصبح هذا اللقبُ مصدر قلق للقبيلة، حتى صار الواحد منهم إذا سُئل ممن الفتى؟ انتسَبَ قائلاً: كعبي ! وليس من بني عجلان.

وهكذا، نجد مما تقدم، أنّ السّخرية في بعض صورها، التصقت بغرض الهجاء في العصر الجاهلي، علماً أنّ هذا الهجاء كان ينصبّ على الصفات الخَلقية والخُلقية، لذا جاءت ملامح السّخرية سطحية بسيطة، غايتها النيل من المهجوّ ببعض صور التهكم والاستهزاء العفوية.

ونلحظ مما تقدم أنّ السخرية في مبناها ودلالاتها التي عرفت بها فيما بعد، كانت باهتة في العصر الجاهلي، لا نعثر فيها على شواهد قوية وشائعة إلا في القليل، كقول عبد يغوث الحارثي في يائيته[31]:

وتضْــحَكُ منــي شــيخة عبْشَــميّةٌ ... كأنْ لم تــرى قبلــي أســيراً يمانيــا

وقيل بقيت الألف للضرورة الشعرية[32] ولعل البيت، يعدّ من الأمثلة المتقدمة على استعمال الضحك مكان السخرية. وكذا قول الأعشى[33] (باهلة) :

إني أتتنــي لســانٌ، لا أُســرُّ بهــا ... مــن علــوَ لا كَــذِبٌ فيهــا ولا سَــخَرُ

فقوله : (ولا سَخَرُ) أي لا تهوين أو استهزاء أو ضحك في الأمر؛ لأنه جدّ. فالخبر الذي وصله موت أخيه المُنتشر بن وهب الباهلي، وعبر عن الخبر باللسان، وعن عالية نجد ب (بعلو)، وهو من شواهد ابن منظور في اللسان في مادة (سَخِرَ).

وحين ننتقل إلى العصر الإسلامي، فنجد المصطلح جرى تداوله، وصار شائعاً؛ فقد استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ وما يشتقّ منه أكثر من أربعين موضعاً، وردت فيها مادة (سَخِرَ) بمعنى السخرية في ستة عشر موضعاً؛ منها ما جاء على سبيل النهي كقوله تعالى[34]:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾ . والنداء موجّهٌ لعامة المؤمنين، بالنهي عن السخرية، والقصد منه قيام علاقة وثيقة بينهم، قائمة على المحبة والتآلف والتراحم، وخالية من بواعث التفرق والكراهية، لذا جاء النهي مباشراً لهم دون غيرهم، وموضحاً للعبرة من ذلك في الآية التي تلتْ هذه الآية. وحيناً على سبيل الوصف للذين سخروا من المُطوّعين في الصدقات، وذلك في قوله[35]: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ومن وصف الكفار أيضاً، قوله تعالى[36]: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقوله تعالى[37]: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، ووردت هذه الآية في سورة الأنبياء (آية 41) بنصّها مكررة. وقوله تعالى[38]:﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۞ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾. وقوله تعالى[39]:﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى۞أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾. ومثل ذلك قوله تعالى[40]:﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، وقوله تعالى[41]: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾، وقوله تعالى[42]:﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۞ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۞ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

والملاحظ في هذه الآيات الكريمة، أنّ السخرية بين المؤمنين غير جائزة أبداً، وذلك لطبيعة علاقة المؤمنين القائمة على المحبة والتآلف والوحدة، بينما يُفهمُ من سياقات بقية الآيات جوازها مع غير المؤمنين، لذا كان ردّ الذين آمنوا بنوح عليه السلام حين سخر منهم بعض رؤوس قومهم وهم يصنعون السفينة مع سيدنا نوح، بأنهم قابلوا السخرية بسخرية. وكذلك ما جاء على لسان الحقّ جلّ وعلا في الرد على جماعة المستهزئين بمن تطوعوا في الصدقات بقوله تعالى (سَخِرَ الله منهم)، وإنْ كانت سخرية الله تختلفُ عن سخرية البشر. والملحوظة الثانية هي أنّ السخرية حين وردتْ اتصلت بسياقها لفظتا الضحك والاستهزاء، كما رأينا في آية سورة الأنعام وسورة المؤمنون، ما يدلّ على اتصال الضحك والاستهزاء دلالياً بالسخرية.

وبالنظر في العلاقات الدلالية بين [السخرية – الضحك – الاستهزاء] نجدُ أنها يمكن أن تقع ضمن دائرة الاشتمال؛ فالسخرية قد تشتمل على ضحك واستهزاء، وقد تكون علاقة جزء من كل، فالضحك الذي يقصد به التنبيه على معايب الآخر جزء من السخرية، وكذا الهزءُ به.

لذا كانت السخرية بما تشتمل عليه من الضحك والاستهزاء جزءاً من فنّ الهجاء الذي يُقصدُ منه مهاجمة الخصم بأفعاله وصفاته وما يَعتدُّ به، والحطّ من شأنه، ونفي المحاسن من شخصيته بكل الوسائل التي منها السُخرية.

وقد جاء خطاب النبي لحسان بن ثابت واضحاً حين هجا الشعراء المشركون المسلمين في المدينة المنورة، وعزّ ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، لذا دعا شعراء المسلمين للردّ عليهم، وكان مما قاله لحسان: (اهج المشركين فإنه روح القدس معك)[43]. فهي دعوة صريحة للهجاء، والردّ على المشركين الذين تطاولوا على الإسلام والمسلمين وأعراضهم.

ونفيد مما تقدم أمرين؛ الأول أنّ الإسلام لم يُجز سخرية المسلم بالمسلم، أو هجاءه، لكنه أباح الردّ على سخرية غير المسلمين أو هجائهم، والأمر الثاني أنّ الهجاء غرض من أغراض الشعر وغايته تحطيم الخصم، والحطّ من شأنه ومن كلّ ما يفخَرُ به، والسخرية جزء من هذا الغرض، ووسيلة من وسائله، إذ لو كان الهجاء كله سخرية لما كان هناك داعٍ لتسميته هجاءً، وكذا الأمر ينسحب على متعلقات السخرية كالإضحاك والاستهزاء، إذ إنّ مما يدخُلُ في السخرية الإضحاك والاستهزاء، ولو كانت السخرية كلها إضحاكاً أو استهزاءً لما سُميت بهذا الاسم. ونفهم مما تقدم، أنّ السخرية لم توجد بوصفها ظاهرة أدبية عامة ملفتة، بل كان الهجاءُ الجاد الذي تُحرّكُه انفعالات السخط والغضب والثأر هو السبيل للرد على الخصم. فالهجاء كان سلاحاً قوياً لا يقلّ عن سلاح المعركة في الحروب، لذا حين أشرقت أنوار الإسلام مُنِعَ استخدام هذا السلاح مع المسلمين.

وفي العصر الراشدي، لا نجد الأمر يختلف عن عصر النبي عليه السلام، فقد استمرّ الخلفاء الراشدون على هدي النبي صلى الله عليه وسلم في منع التهاجي، كما نجد في تحذير الخليفة عمر بن الخطاب للحطيئة حين قال له: (إياك والهجاء المقذع، قال: وما المُقذع يا أمير المؤمنين؟ قال: أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء، وتبني شعراً على مدح لقوم، وذم لمن تعاديهم. فقال الحطيئة: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلمُ مني بمذاهب الشعر)[44].

وبقي الأمر كذلك حتى العصر الأموي، فتغيرت الأحوال كلها، وطغت السياسة والبحث عن منافع الدنيا على حياة الناس، وسكنت أكثر القبائل الحضر، وعادت العصبيات القبلية، وصار الناس يتسابقون إلى سوقي المِرْبَد والكُناسة في البصرة والكوفة للاستماع لقصائد هجاء جرير والفرزدق، وكأنهم وجدوا فيها لهواً وتسلية كما يرى شوقي ضيف[45]؛ إذ إنّ النقائض لم تكن هجاءً مستمراً ولم يكن يُراد بها الجدّ بل اللهو والإضحاك أيضاً. لذا نجد الشاعر جرير يقول لبنيه: (إذا مدحتم فلا تُطيلوا الممادحة، وإذا هجوتم فخالفوا، وقال أيضاً: إذا هجوت فأضحكْ)[46]. ومن أبرز الشعراء الذين عرفوا بذلك فوق شعراء النقائض، بشار بن برد، الذي عاش شطراً من حياته في العصر الأموي وشطراً آخر في العصر العباسي، وكذا ابن مُفرِّغ يزيد بن ربيعة الحميري، الذي قيل إن عبّاد بن زياد والي سجستان صحبه مرة، وكان عبّاد طويل اللحية، فهبّت ريح فنفشت لحيته، فقال ابن مُفرِّغ[47]:

ألا ليت اللِّحى كانت حشيشاً ... فنعلفَها دوابَ المسلمينا

فعَلِمَ عبّاد بما قاله، فجفاه وتنكّر له، وندم ابن المفرّغ على قوله، غير أن ذاك لم ينفعه. والمتأمل في البيت وسياقه يعلم أن ابن مُفرّغ لم يقصد السخرية من عبّاد هذا، ولو قصد لما ندم، لكنّ ظاهر اللفظ يومئ بشيء من السخرية التي غايتها اللهو والإمتاع.

وفي العصر العباسي نجد تغير مظاهر الحياة عما كانت عليه في العصر الأموي، فتختلط الأجناس، بين العرب وغيرهم من الموالي الوافدين من بلاد فارس وشرق آسيا وشمالها من بلاد الروم، ويتبوؤون مناصب رفيعة في الدولة الإسلامية، ويتحكمون في أمور الدولة مع مضي الزمن. ويظهر منهم الكتّاب والوزراء والقادة ، وينتشر اللهو والغناء والترف في المأكل والمشرب ، وشهدت الدولة

لأبي بكرٍ كلامٌ ... واحدٌ لا يتعدَّى
ضَرَبَ اللّهُ عليْه ... دون لفظِ الخلقِ حدَّا
وله أبياتُ شعرٍ ... أُلِّفَتْ زَوْجاً وفردا
مُقْوياتٌ مُكْفِآتٌ ... صَلحتْ للقردِ عقْدا

– مع ذلك– نهضة علمية في كل المجالات؛ في التأليف اللغوي والأدبي والعلمي والفلسفي، وفي الترجمة، وفي فنّ بناء القصور والمساجد والأسواق والبرك والحدائق ، وتبع ذلك أن تطور فنّ الهجاء تطوراً ملحوظاً، فتغيرت الأساليب، وتبدلت الغايات، وكأن انغماس الناس عامة بحياة الحضارة التي عاشوها في العصر العباسي قد هذّبت من أساليبهم وطرق تفكيرهم وعاداتهم، فلم يعد الهجاء المباشر وسيلة مندوحة لدى سائر الشعراء لتغير الأذواق، بل مال الشعراء والأدباء إلى وصف الحياة، ومظاهرها وصف المُعجَب أو وصف الناقد، بأسلوب فُكاهي يثير الضحك، كما نجد لدى ابن الرومي حين قال في شخص يسمى أبا بكر[48]:

فابن الرومي يضحكُ من أبي بكر، ويريد أن يُضحِكَ الناس من منطقه وشعره، الذي يشيع فيه الإقواء، ولو صلح شعره لشيء لصلح أن يكون عِقداً في أعناق القرود فقط. والمقام لا يشتمل على غضبٍ وسخط وانتقام، حتى نسميه هجاءً، بل الهدف هو الإمتاع، وهو أقرب إلى الفكاهة منه للسخرية، على قربه من الاثنتين.

ويخطّ أبو نواس خطّاً جديداً في نقد العرب، وحياتهم بأسلوب التحقير، والاستعلاء، مفتخراً بفارسيته، يقول[49]:

إذا تميميّ أتاك مُفْتَخِراً ... فقلْ عَدِّ عن ذا، كيف أكْلُكَ للضَبِّ

تُفاخِرُ أبناءَ الملوك سفاهةً ... وبولكَ يجري فوق ساقك والكعبِ

فأبو نواس يُعيّر العرب بأكلهم الضبّ، وعدم تنزههم من البول، ويعجبُ كيف يفاخرون الملوك، وهم أدنى منهم. ولأبي نواس أبيات أخرى يهاجم فيها حياة الأعراب ناقداً لحياتهم، وهازئاً بها، كقوله[50]:

ولا تأخذْ عن الأعرابِ لهواً ... ولا عيْشاً فعيْشُهم جديبُ

ذرِ الألبان يشْربُها أُناسٌ ... رقيقُ العيشِ عندهمُ غريبُ

إذا راب الحليبُ فبلْ عليه ... ولا تُحْرَجْ فما في ذاك حوبُ

فهذا العيشُ لا عيشُ البوادي ... وهذا العيشُ لا اللبن الحليبُ

ولعل الذي يشبه ابن الرومي في روحه الساخرة هذه الشاعر المتنبي، وله أبيات كثيرة تبعث على الضحك الذي يندرج في السخرية، يقول في رجلين قتلا جُرذاً[51]:

لقد أصبح الجُرذُ المُستغيرُ ... أسيرَ المنايا صريعَ العطبْ

رماه الكنانيّ والعامريّ ... وتَلّاهُ للوجه فعل العربْ

كلا الرجلين أتلى قتْله ... فأيّكُما غلَّ حُرّ السّلبْ

فالشاعر يرسم صورة مضحكة ومؤلمة معاً، فأيّ شجاعة لرجلين يتسابقان لقتل جُرذ؟ ويُعجبان بفعلهما؟ وهل يستحقّ الجُرذ (المُستغير: صاحب الغارات) أن تحركه بعد قتله، لتستبين عظمة ما فعلت من قتل؟ وهل حصل القاتل على سلبٍ؟ هذه المفارقة التي يرسمها الشاعر بين رجلين وجُرذ تحمل في مضمونها سخرية وضحكاً من فعلهما.

وحين ننظر في الأدب الأندلسي، نجد الوضع يختلف قليلاً، فقد عاش العرب حياة أخرى هناك، تختلف عن طبيعة المشرق، فلم يشكُ الناس من الفقر والحرمان، لكنهم شكوا من الأوضاع السياسة التي لم تستقر كثيراً، وبخاصة بعد القرن الثالث الهجري، وما تلاه من قرون، إذ عمّت الفتن، وكثر الظلم والاستبداد، ومال الشعراء لانتقاد هذه الأوضاع، وتعرضوا للقضاة والفقهاء ورجال الحكم، ونلمس في جلّ هذه الأشعار عذوبة اللفظ وروعة المعاني، التي تنساب منها روح الدّعابة والظُرف، وكأن الشعر أصبح متنفساً للشعراء مما يشعرون به من تغير الحال، وانقلاب الزمان، يقول لسان الدين بن الخطيب(ت776هـ) معرّضاً بقاضٍ[52]:

بلوْشَة قاضٍ له زوجة ... وأحكامها في الورى ماضية

فيا ليته لم يكن قاضياً ... ويا ليتها كانت القاضية

وقيل إن زوجة القاضي سمعت بالبيتين، فردّت على الشاعر تقول:

هو شيخُ سوءٍ مزدري ... له شيوب عاصية

كلا لئن لم تنته ... لنسفَعَنْ بالناصية

كما كان للحُجّاب نصيب من التهكم والسخرية، يقول ابن عبد ربه(ت328هـ) في أحدهم[53] :

ما بال بابك محروساً ببوّاب ... يحميه من طارق يأتي ومنتاب

لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد ... فالمقت يحجبه من غير حجاب

فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه ... فإن وجهك طلسم على الباب

وتعرض الشعراء كذلك للموضوعات الاجتماعية كالبخل والجبن والجهل، ومنهم من تعرض للعيوب الخلقية، كما فعل يحيى بن الحكم الغزال (ت 250هـ) في وصف امرأة صلعاء، رسم لها صورة مضحكة حين قال[54]:

جَرداءُ صَلعاءُ لَم يُبقِ الزَمانُ لَها ... إِلّا لِساناً مُلَحّاً بِالمَلامات

لَطَمتُها لَطمَةً طارَت عَمامَتُها ... عَن صَلعَةٍ لَيسَ فيها خَمسُ شَعرات

وكان للعبيد والخدم نصيب من السخرية والاستهزاء، كما نلحظ في قول حفصة بنت حمدون[55]:

رب إني مـن عبيـدي علـى جمر الغضـا ما فيهم من نجيبُ
إمّـا جهـول أبلَـهٌ متـعبٌ أو فَطِـنٌ من كيـده لا يُجيبُ

وبالنظر في عصر المماليك نجد الأدب يصور ما عاناه الناس عامة من الجوع والحرمان والفقر والتخلف والفساد، فقد انتشرت الرشوة، وتجبّر الحكّام على الناس حتى رأينا كثيرا من الشعراء يجنحون للشكوى من الفساد والفقر وسوء القوانين ويتغنون برغيف الخبز، يقول شهاب الدين الأعرج(ت785هـ)[56]:

وكيف يـرومُ الـرزقَ في مصـر عاقلٌ ومـن دونه الأتـراكُ بالسـيف والترسِ
فللترك والسلطانِ ثلثُ خراجها وللقبطِ نصـفٌ والخلائق في السـدس

ويشكو البوصيري(ت694هـ) تسلط الأقباط فيخاطب السلطان قائلاً [57]:

انظـرْ بحقّـك في أمـر الدواويـن فالـكلُّ قـد غـيّروا وضـع القوانـين

وقد دفعت هذه الأوضاع بعض الشعراء إلى الميل إلى الفكاهة والإضحاك وسيلة التعبير عن مشاعر البؤس والحرمان التي عانوها، وهناك عدد من الشعراء عُرفوا بهذا الفنّ، ومنهم يحيى بن عبد العظيم الجزار (ت679هـ) الذي وصفه ابن كثير[58] بأنه كان ماجناً ظريفاً حلو المناظرة، ومنهم شمس الدين ابن دانيال (ت710هـ) الذي وصفه صاحب فوات الوفيات[59] بأنه كان صاحب النظم الحلو والنثر العذب والنكت الغريبة والنوادر العجيبة.

ومن شواهد ذلك، قول يحيى الجزار يصف زواج أبيه، برسم صورة مضحكة لهذه الزوجة، يقول[60] :

تزوَّجَ الشـيخُ أبـي زوجةً ليـس لهـا عقـلٌ ولا ذهنُ
لـو بـرزت صُـورَتها في الدُّجَـى مـا جَسُـرَت تبصُرهـا الجـنُّ
كأنَّهـا في فرشـها رمَّةٌ وشـعرها مـن حَولَهـا قُطـنُ
وقائـلٍ قـال لي مـا سِـنُّها فقلـتُ مـا في فمهـا سِـنُّ

وكذا قول ابن دانيال في وصف فقره وبيته الخَرِب[61]:

أصـبحتُ أفقـرَ مـن يـروحُ ويغتدي مـا في يـدي مـن فاقـة إلاّ يـدي
في منـزلٍ لم يحـوِ غـيري قاعـداً فـإذا رقـدْتُ رقـدتُ غـير مُمـدّدِ
والفـأر يركضُـ كالخيـول تسـابقتْ مـن كلّ جـرداء الأديم وأجـردِ
هذا ولي ثوبٌ تـراه مُرقّعـاً مـن كلّ لـونٍ مثـل ريشِ الهُـدهُدِ

فهو يضجّ بحاله البائسة شاكياً ما آل إليه وضعه من الفقر الشديد، الذي جعله يلبس البالي من الثياب ويسكن بيتاً تركض فيه الفئران، وهي صورة –فيما أعتقد – تبعث على الحزن أكثر مما تبعث على الضحك، وإن كانت تشتمل على طرافة التصوير.

ونجد من الشعراء من ذهب للتعرض في الصفات الخَلْقية، كما فعل البهاء زهير(ت686هـ)، حين شبّه رجلاً أسود ذا لحية بيضاء بعقاب أسود في عنقه بياض، يقول[62]:

وأسـود شـيخ في الثمانـين سِـنُّهُ غـدا وجههُ مـن أبيضِ الشـيبِ بلقعا
لـهُ لحيـةٌ مُبْيَضـةٌ مسـتديرةٌ أشْـبَهَهُ فيها عقـاباً مُطوّقا

وهناك من الشعراء من استعمل التورية، نوعاً من الدعابة اللغوية، كالشيخ زين الدين بن الوردي وقد أضافه بعض الطلبة وصعد به إلى سطح عالٍ ولم يطعمه شيئاً وصار يتعهده بالماء من أول الليل إلى آخره[63] فقال ابن الوردي يهجو بُخْلَه:

أحـلّ الضـيوفَ علـى سـطحه وفرَّجهـم في نجـوم السَّـما
وقطـع بالجـوعِ أمعاءَهـم وإن يسـتغيثوا يُغاثـوا بمـا

فجمال الصورة في البيتين تكمن في صورة الضيوف والجوع يلوي أمعاءهم، بينما المُضيف غير مُبالٍ، بل إن حالهم معه كحال الكفار يوم القيامة ذاك الذي وصفه الله بقوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه..﴾[64]، لذا أتى الشاعر بجزء من الآية، لتكتمل الصورة المُضحكة، بين الحاجة للطعام وهو غير موجود، وماء المُهل الذي يقطّع الأمعاء ويزيد الألم.

وتأسيساً على ما تقدم، يمكن القول إنّ الفنون التي وجدت في العصور القديمة وأريد منهم التعرض للأشخاص والجماعات لم تكن هِجاءَ سخرية محضة، بل تلونت باختلاف المقام والغاية والعصر، ففي العصر الجاهلي طغى الهجاء، وذكرُ العيوب دون أن يكون القصد السخرية إلاّ في شواهد محدودة، وفي العصر الإسلامي بدأ المصطلح بالشيوع، نتيجة لتداوله الديني والنهي عنه، حتى إذا بدأت نقائض جرير والفرزدق والأخطل، ظهر المصطلح بقوّة، رغم أنه اتجه نحو دلالات الفكاهة والإضحاك، بينما في العصور العباسية والأندلسية وما تلاها، نلحظ أنّ المصطلح بدأ يتطور حاملاً سياقاته الأصلية

لــو عاشــ حمــاد لهونــا بــه

فهو يتمنى لو عاش حماد زمنا آخر، وذلك من أجل قضاء فترة لهو وإمتاع أخرى ، ما يدلّ على أنّ حدّة الخصومة لم تكن حقيقية كما توهم كثير من الدارسين.

2. عند النقاد والبلاغيين القدماء:

ربما يصعب الحكم الدقيق على مضامين بعض النصوص القديمة فيما اشتملت عليه من نوادر وطرائف وأخبار، إنْ كان ذلك يُعدّ سخرية أم فكاهة أم إمتاعاً وتسلية أم هجاءً !؟ ولعلّ السبب في صعوبة الحكم هو عدم وضوح دلالة هذه المفاهيم قديماً، ونحن لا نعجب من ذلك، حين نعلم أنّ البلاغيين الذين وضعوا أصول علم البلاغة قد افترقوا أمام دلالة المصطلحات، ولم يحدوا ما تفيده الأساليب البلاغية في سياقاتها المتعددة بحدّ واحد واضح، وكان الطبيعي أنْ تغيب عن أذهانهم دلالة المفاهيم والأساليب لانهماكهم بالبحث عن الشكل وتأطيره، أكثر من المضمون وتحليله. ومن أمثلة عدم وضوح دلالة المصطلحات والمفاهيم ما نجده في مصطلح الالتفات، إذ نلمس مدى الاضطراب والاختلاف حين نقرأ تلك الآراء، فبعضهم سمّاه الانصراف، وبعضهم سَمّاه العدول، وفريق سمّاه الاستدراك، وفريق سمّاه الاعتراض[66].

ربما كان التفسير المنطقي لهذا الاختلاف أنّ القدماء كان همُّهُم الأكبر التقعيد والتأصيل، لهذه اللغة في ألفاظها وأصواتها وصرفها وقواعدها وبلاغتها، لذا نجد أن المصطلح بدأ يتضح بصورة جلية لدى المتأخرين، الذين أفادوا مما قدّمه أجدادهم.

إنّ الناظر في كتب القدماء ليَجِدُ أنهم أَتَوْا على ما له صلة بالسخرية؛ فقد جمع الجاحظ في كتابيه البيان والتبيين والبخلاء

ومــا أدري وســوف إخــالُ أدري
فــإنْ تكــن النســاءُ مُخبّئــاتٍ

والتشكك بادٍ في استفهام زهير عن آل حصن، إنْ كانوا رجالاً أم نساءً؟ وهو استفهام في مضمونه الهزء والاستخفاف.

وقد تعرض السكاكي لمتعلقات السخرية دون أن يذكر السخرية بالنصّ، وذلك حين أتى على بعض المعاني التي تخرج إليها أسماء الاستفهام نحو [ما – أين – من – متى – أيّان] كالتوبيخ والتقريع والإنكار، ونراه يقول : واعلم أنّ هذه الكلمة كثيراً ما يتولّدُ منها أمثال ما سبق من المعاني بمعرفة قرائن الأحوال، فيقال: ما هذا ؟ لمجرد الاستخفاف والتحقير ..[72].

التي يتداولها المحدثون اليوم، ونعني بذلك وجود مُحفّز ودافع على الاستعمال، كالظلم، والقهر والتعسف، والفقر، وهي محفّزات ظهرت في العصر العباسي والمملوكي والأندلسي.

ومن الأدلة التي توضح أن كثيراً مما قرأنا لم يكن هجاءً أو سخرية أن العداوة بين بشار بن برد وحمّاد عجرد كما وصفها المؤرخون، بلغت حداً كبيراً من البغضاء، وتهاجيا في مقطوعات كثيرة، مبثوثة في كتب الأدب، غير أن بشاراً حين بلغه مرضُ حمّاد ثم نَعْيُه قال[65]:

لكنَّــــــــــــــــــــهُ صار إلى النارِ

كثيراً من كلام الحمقى والجفاة والأغبياء والبخلاء، التي نلمس فيها فكاهة وإمتاعاً، على ما عُرف عن الجاحظ من النقد لبعض صور الناس في مجتمعه، غير أننا لا نستطيع أن نصنف أدبه بالأدب الساخر وفق فهمنا للسخرية اليوم، ما دام هو نفسه خصّ أغراض كتابه بقوله:(بيان حجّة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجدّ)[67]. وحين ننظر في بديع ابن المعتز نجده يشير إلى السخرية في حديثه عن محاسن الكلام الذي منه الاستطراد، فيرى أن بعض الاستطراد يخرج إلى المدح وبعضه الآخر يخرج إلى الهجاء والسخرية[68]، ونجد ابن قتيبة[69] في كتابه الشعر والشعراء حين يتحدث عن جرير يعدّه أشدّ الشعراء هجاء، ويسمي نقائضه مع الفرزدق هجاء على ما فيها من إضحاك وتسلية. أمّا ابن جعفر[70] فنراه يتحدث عن نعت الهجاء، و يذكر أبياتا للسموأل بن عاديا ولأحمد بن يحيى ، ويرى أن من جودة الهجاء أن يتعمد الشاعر ذكر أضداد الفضائل على الحقيقة فيجعلها فيهم ، لذا نراه يكره الغلو في الهجاء كما يكره الغلو في المدح، أما ابن رشيق القيرواني[71] فيورد رأي صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه في أنّ أبلغ الهجاء ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأمّا القذف والإفحاش فسبابٌ محض، ثم يعقّب على قول صاحب الوساطة بقوله: ومما يدلّ على صحة ما قاله صاحب الوساطة وحسن ما ذهب إليه إعجاب الحذّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير في تشككه وتهزله وتجاهله:

أقــومٌ آلُ حصــنٍ أم نســاءُ
فحــقَّ لــكلّ مُحْصَــنَةٍ هِــداءُ

وهكذا، نلمسُ أن القدماء البلاغيين، لم يستعملوا مصطلح السخرية استعمالاً يدلّ عليها لذاتها في معناها العميق القويّ الذي نعرفه اليوم، بل استعملوا الهجاء مصطلحاً بوصفه عاماً ذائعاً معروفاً لديهم، حتى لو كان فيه فكاهة وإضحاكاً وسخرية!! وقد درجتْ ألفاظ أخرى على ألسنتهم وفي مؤلفاتهم تتصل بدلالة السخرية – وهم يقصدون الهجاء–كالإضحاك والاستخفاف والتحقير والاستهزاء والتهكم والفكاهة، على ما بين هذه الألفاظ من مسافات دلالية واضحة. وبالنظر في دلالة هذه المسمّيات في المعاجم سنجد أنّ الضَحِكَ من: ضَحِكَ يَضْحَك ضَحْكاً وضِحْكاً

وضَحكاً أربع لغات، والضَّحكُ ظهور الثنايا من الفرح. والضَّحْكُ العَجَب والضُّحَكة الرجل الكثير الضَّحك يُعاب عليه. ورجل ضَحَّاك: نعت على فَعَّال. وضَحِكْتُ به ومنه بمعنىً. وتَضاحك الرجل واسْتَضْحَك بمعنى. وهو قريب مما تقدَّم[73].

أمّا الاستخفاف: فهو من خفّ يخفّ خَفّاً وخِفّةً صار خفيفاً فهو خفيف، والخفّ ما خَفّ محملُه، واسْتَخَفَّ فلان بحقي إذا اسْتَهانَ به، واسْتَخَفَّه الفرحُ إذا ارتاح لأمر، واستخفه الجَزَعُ والطَربُ خَفَّ لهما فاسْتَطار ولم يثبُت. اسْتَخَفَّه فلان إذا اسْتَجْهَله فحمله على اتِّباعه في غَيِّه[74].

والتحقير من الحَقْر وهو الذِّلَّة؛ وهو من حَقَرَ يَحْقِرُ حَقْراً، وتَحاقَرَتْ إليه نفسه؛ تَصاغَرَتْ. والتَّحْقيرُ: التصغيرُ والمُحَقَّراتُ الصغائر[75]. والاستهزاء من هَزَأَ، والهُزْءَ والهُزُوُ: السُّخريةُ. هُزِئَ به ومنه. وهَزَأَ يَهْزَأُ فيهما هُزْءاً وهُزُواً ومَهْزَأَةً، وتَهَزَّأَ واسْتَهْزَأَ به: سَخِرَ[76]. أمّا التهكم فهو من مادة هَكَمَ، والهَكَمُ: المُتَقحِّم على ما لا يَعنيه الذي يتعرَّض للناس بشرِّه؛ وتهكم بنا: زَرى علينا وعَبثَ بنا. والتهكُّم التكبُّرُ. والمُسْتَهْكِمُ المُتكبِّرُ، والمُتَهَكِّمُ المتكبِّرُ، وهو أيضاً الذي يتهدَّمُ عليك من الغيْظ والحُمْق. وتهكَّم عليه إذا اشتد غضبُه. والتهكُّم التبَخْتُر بطَراً، والتهزّؤ[77]. أمّا الفكاهة فهي من فَكِهَ، نقول رجلٌ فَكِهٌ: يأْكل الفاكهةَ، وفاكهٌ: عنده فاكهة، وكلاهُما على النَّسَب. والفاكهُ الذي كَثُرَتْ فَاكهتُه، والفَكِهُ: الذي يَنالُ من أعراض الناس، وإذا كان طَيِّبَ النَّفْس مَزّاحاً، والفاكهُ المزّاحُ. والفُكاهةُ، بالضم: المزاحُ، وقيل: الفاكهُ ذو الفُكاهة، والتَّفاكُهُ: التَّمازُحُ. وفاكَهْتُ القومَ مُفاكَهةً بمُلَح الكلام والمزاح، والمُفاكَهَةُ: المُمازحَةُ[78]. **وهذه الدلالات كلها، تظهر لنا مَجموعاتَ من العلاقات الدلالية، نوضحها على النحو الآتي:**

1. [الضحك – الاستخفاف –التحقير] بينهما علاقة قد تكون سبباً ونتيجة، فالضحك من الشخص وإضحاك الناس منه قد يكون سببه الاستخفاف أو التحقير.

2. [الضحك – الفكاهة] غالباً ما يكون بينهما علاقة تلازم واقتران، فلا فَكاهة دون ضحك، وقد يكون سبب الضحك الفكاهة أيضاً، لكنّ الفكاهة وفق ما ورد في جلّ المعاجم لا تكون ناتجة عن شرّ أو بغض أو تحقير. لوقوعها في اللهو والإمتاع والتسلية.

3. [التهكم – الاستخفاف – التحقير – السخرية] تعدّ هذه الدوالّ أقرب لبعضها دلالياً من أيّ دالّ آخر في قربه من السخرية، فالتهكم ينتج غالباً عن شعور بالتعالي أو الفوقية، وكذا الاستخفاف والتحقير، لذا فالمتهكِمُ والمُستَخِفُ والمستَحْقِرُ غالباً ما يكون ناقماً ساخطاً، وهي رغم التقارب الدلالي بينها غير أنها تحمل شحنات انفعالية متدرجة، تبدأ بالاستخفاف ثم التهكم ثم التحقير، وقد يصحبها إضحاك واستهزاء مقصود فتكون سخرية واضحة. لذا فعلاقة [التهكم – الاستخفاف– التحقير] ب [الإضحاك – الاستهزاء] هي علاقة اشتمال، إذ من الأمور التي يشتمل عليه التهكم والاستخفاف والتحقير الإضحاك والاستهزاء.

وتأسيساً على ما تقدّم، يمكن القول، إنّ السخرية في الأدب لا تقع من نفس راضية هادئة، بل غالباً ما تكون مشحونة بمشاعر السخط والغضب، لذا تبحث عن وسيلة فاعلة ومؤثرة لإيصال صوتها، ولا تكون تلك الوسيلة بالتصريح، لأنّ التصريح يجعلها هجاءً، بل لا بدّ من أن تستعمل الألفاظ استعمالاً جديداً بدلالات عميقة مؤلمة.

ولعلّ أكثر القدماء الذين حاموا حول هذه المعاني ولم يقعوا على مسمّاها ابن رشيق القيرواني، ثم حازم القرطاجني؛ ابنُ رشيق حين عقّب على قول جرير الذي أوصى ابنه بقوله: (إذا هجوْتَ فأضحِك)، فكأن جريراً كان يقصد السخرية، لكنها لم تقع في باله لحظة القول، لذا نجد ابن رشيق يستدرك ما فات جريراً بقوله: (وأنا أرى أنّ التعريض أهجى، من التصريح لاتساع الظنّ في التعريض، وشدّة تعلّق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفسُ علماً، وقبلتْهُ يقيناً في أول وهلة، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يَعرض..)[79]. فجريرٌ يربط الهجاء بالضحك، وهو يريد رسم صورة كاريكاتورية للمهجو، وابن رشيق، يبدو غير موافق لإدخال الضحك في الهجاء، وكأنه يبحث عن أسلوب آخر أكثر إيلاما للمهجو، لكنه لا يذكر السخرية بلفظها بل بدلالتها، حين يرى أن التعريض أشدّ إيلاما من التصريح، ويعلل ذلك بأنّ الهجاء الظاهر الصريح لا يعلق بالنفس وهو عُرضةٌ للنسيان والملل. وهو من أقرب الآراء لدى القدماء إلى دلالة السخرية التي يفهمها المحدثون اليوم.

أمّا حازم القرطاجني فتتجلى عبقريته النقدية حين تحدث عن الطرق الشعرية، وقسّمها إلى طريقين: جدّ وهزل، ورأى أن للشعر قسمة أخرى يمكن أن ينقسم إليها وفق المقاصد والأغراض، وهو يرى أن طريق الجدّ مذهب في الكلام تصدر الأقاويلُ فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمّةَ والهوى، أما طريق الهزْل ففيه تصدر الأقاويل عن مجون وسُخف بنزاع الهمّة والهوى، فإن كان الطريق في الشعر الجدَّ فيجب ألاّ ينحرف الكلام نحو الهزل؛ لأنّ الكلام المبني على الجد إنما قُصدَ إلقاؤه بمحلّ القبول من أهل الجدّ، وكثير منهم يكره طرق الهزل، لذا على الشاعر أن يتجنب الساقط من الألفاظ والمولّدَ منها ويقتصر على العربي المحض، والتصريف الصريحة، وأن يحرص على الرصانة والمتانة، كما يُتحرى في طرق الهزْل الحلاوة والرشاقة، وقد تأخذ الطريقة الجدّية بطرف من الرشاقة، لأن أهل طريقة الهزل يشاركون أهل طريقة الجدّ بكثير من المعاني والعبارات، لكن القصد ألا تؤخذ طريقة الجد بطريقة الهزل، وألا تؤخذ طريقة الهزل بطريقة الجدّ، إلاّ بالإشارة التي يقتضي إليها الغرض ولا تجعل واحداً يطغى على الآخر، بما يكون على جهة المزاح أو الدعابة..[80].

ثالثاً- السخرية عند المُحدثين:

حين ننظر في كتب المحدثين ودراساتهم، نجد لدى بعضهم اضطراباً في حديثهم عن السخرية، فهذا شوقي ضيف حين يتحدث عن شعراء العصر العباسي الأول، ويأتي على حمّاد عجرد وبشار بن برد، وما كان بينهما من خلاف دفعهما إلى هجاء بعضهما، يقول: (...فهجاه (بشار) والتحم بينهما الهجاء، وشغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما...وكان بشار مع زندقته يكثر من هجائه بالزندقة؛ إذ كان يهجوه بعماه وقبح خِلْقَته ودَنَسه وقذارَته، مُهوّناً منه أشدّ التهوين، ومستخفاً منه أشدّ الاستخفاف.. ومن المحقق أن حماداً كان يستعلي عليه في تلك المعركة إذ كان يشيع في هجائه له سُخرية مرة[81]. وحين يتحدث عن أبي الشمقمق يصفه بسلاطة اللسان، وميله إلى الألفاظ الشعبية، وذلك لطبيعة حياة البؤس والفقر التي عاشها، ومع ذلك كان أكبر الشعراء كبشار بن برد يحسب له

حساباً ويدفع له المال مقابل ألا يتعرض له بهجاء، وكان لا يتورع أن يصف بؤس حاله، وانتشار البراغيث والجرذان في بيته، وكان في شعره يصور الطبقة العامة الفقيرة في بغداد التي كانت تكدح لتملأ الطبقة الغنية بطونها، وقد لامست أشعاره قلوب الناس أكثر من أشعار غيره، ومع هذا كان يخلط الحديث عن تعاسته وتعاسة غيره بشيء من الفكاهة[82]. وبالنظر إلى حديث شوقي ضيف نجد أنه يستخدم لفظ الهجاء تارة، ولفظ السخرية تارة أخرى، ويستخدم الاستخفاف والفكاهة لوصف أشعار هؤلاء الشعراء في مقام واحد. بينما نجده حين يتحدث عن العقاد، يقترب من دلالة السخرية الحديثة، حين يرى أنّ العقاد يختلف عن عبد الرحمن شكري، في أنه لا يبلغه مبلغه من البؤس والتشاؤم والحزن العميق، بل تتألق أمام عينيه الآمال، فهو حزين لكنه طامح، وهو طموح ينتهي عنده إلى تمرد على الحياة وسخرية مُرّة بها وبالناس)[83] فهو يربط بين الحزن والتمرد والسخرية. أما عبد القادر المازني فيرى أن السخرية مقابلة الواقع بما فيه من نقص بحثاً عن الكمال، وتشتمل على العواطف العنيفة، وتمزج الهزل بالجد، بينما يرى أن الفكاهة هي تحرر من العواطف العنيفة وفيها تأمل واطمئنان ، وفيها يمنح الشاعر الحماقات والسخف ابتسامة رضية وليس عبرة متحدرة[84]. وهناك من الكتّاب المحدثين من جعلوا السخرية ضمن غرض الهجاء كما فعل إيليا حاوي[85]، ومحمد محمد حسين[86]ويرى حامد عبده الهوال أن السخرية (كفكاهة تعدّ أرقى أنواع الفكاهة لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر، ولذلك اتخذ منها الفلاسفة والأدباء أداة يستخدمونها في دقة لبيان رأيهم في الخرافات السائدة أو المذاهب التي يختلفون معها، ويهزؤون بها، كما لجأ إليها رجال السياسة في التندر بخصومهم، وما يمثلون من أفكار أو مبادئ ..)[87]، وممن وقفوا على دلالات السخرية أيضاً؛ نبيل الراغب[88]، الذي حاول أن يفرق بين الأدب الساخر والسخرية، فيرى أنه إذا أصبحت السخرية هي العنصر الأساس في المضمون للأحداث والمواقف، فإنّ الأدب ينضوي تحت بند الأدب الساخر، وهو يرى فروقاً بين السخرية كعنصر، وبين العناصر الأخرى كالتهكم والفكاهة والنقد والهجاء والتلميح والدعابة، فالسخرية إذا سادت كل عناصر العمل الأدبي، فإنها توظف عناصر التهكم والفكاهة في تعميق توجهاتها الفكرية والاجتماعية والفنية، ويرى أن الأدب الساخر له هدف تصحيحي سواء أكان أخلاقياً أم جمالياً، لذا يختلف عن أساليب التعبير الأخرى.

ويلحظ مما تقدم، أن المحدثين استخدموا مرادفات لمصطلح السخرية، كالإضحاك، والدعابة، والفكاهة، والاستهزاء، والتهكم، والاستخفاف، لكنّ فريقاً منهم تميّز بالبحث العميق محاولاً وضع حدود فاصلة بين هذه الألفاظ، كما نجد في دراسة نبيل الراغب السابقة، وغيره من المحدثين.

إنّ أساس الخُلف في موضوع السخرية تعدد النظرات، وتعدد الزوايا التي ينظر منها كل فريق، وهذا يجعلنا –أمام هذا الخلاف– على ثقة بعدم نضوج تعريف دقيق لمصطلح السخرية، حتى الآن، نتيجة لهذه النظرات المتعددة.

ونتساءل: هل الشاعر حين يريد أن ينظم قصيدة يسخر فيها، يكون في موقف مشابه، وغاية محاكية للشاعر الذي يريد أن يهجو، أو يُضحِك، أو يُمتّعَ، أو يلهو؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فهذا يدلّ أنّ جميع الألفاظ المتصلة بالسخرية هي من باب الترادف، وإن كانت بالسلب، فمعنى ذلك أن الذي يستخدمها بدلالة السخرية يستخدمها استخداماً خاطئاً.

وبما أنّ فنّ السخرية أصبح يطلق على لون من ألوان الأدب حديثاً، فلا بد أن يستقلّ مصطلحاً، ولن يستقلّ ما لم يوضع له حدّ مانع جامعٌ، ولن يوضعَ له حدٌّ ما لم يُخَلَّصَ من تداخله مع مصطلحات أخرى قريبة منه، والناظر لحديث القدماء البلاغيين يجدُ أنهم حاموا حول المصطلح، وأشاروا إليه دون أن ينصّوا عليه، على ما في الأدب القديم من شواهد واضحة يمكن أن تُحملَ وتصنف على أنها من الأدب الساخر. أما المحدثون فكانوا أقرب إلى دلالة المصطلح، لاختلاف طبيعة الحياة، وللتطور الذي حدث في الفنون الأدبية، ونتيجة لتعقيدات الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، كلّ ذلك أسهم في ميلاد هذا اللون من الأدب الذي نستطيع أن نجده في أشعار شعراء هذا القرن كنزار قباني وأحمد مطر والسياب ومظفر النواب ومحمود درويش وسميح القاسم وأمل دنقل ، وفي روايات كثير من الكتاب وقصصهم كزكريا تامر، وجبرا إبراهيم جبرا وإميل حبيبي وحنا مينه، وعبد الرحمن منيف، ومحمود شقير، ومحمد الماغوط، وغيرهم كثير، ممن يجمعهم الشعور بالألم والمعاناة من الغربة، والكبت السياسي، والانتماء للفقراء والبسطاء والمظلومين. فحين ننظر في شعر أحمد مطر على سبيل المثال سنقرّب الصورة أكثر، ولننظر إليه في إحدى مقطوعاته بعنوان(احتياط) يقول[89]:

فُجِعَتْ بي زوجتي.... حين رأتني باسماً
لَطَمتْ كفاً بكفّ، واستجارت بالسَّما
قلتُ: لا تنزعجي...إني بخير
لم يزلْ دائي معافى، وانكساري سالماً
اطمئني.. كلُّ شيء في ما زال كما
لم أكنْ أقصدُ أن ابتسما
كنتُ أُجري لِفَمي بعض التمارين احتياطاً
ربما أفْرَحُ يوماً
ربَما!!

هذه المقطوعة، حارّة في مضمونها، تكشف درجة التوتر النفسي الذي يعيشه الشاعر، وفرض عليه الخوف والحذر، والترقب من السلطان، وتتجلى السخرية مرّةً مؤلمة، حين جعل الابتسام مثار تعجب الزوجة! تلك التي هالها الأمر كيف يبتسم زوجها؟ وتتتابع خيوط السخرية بردّ الزوج حين أخبرها، إنه ما يزال يحافظ على انكساره، وما قام به هو بعض التمارين لفمه فقط! المقطوعة في ألفاظها أخبرت عن حال الشاعر، لكن بالإيحاء والتعريض، وهي لا تبعث الضحك والإمتاع! لكن تبعث على السخرية المرّة من الحال التي وصل إليها الشاعر من الضيق ودوام المراقبة لوضعه من الوشاة والمفسدين، ما جعلوا حياته جحيماً، يعدّ ابتساماته كي لا تعدّ تمرداً. ويمكن النظر في غيرها من اللافتات، أو في غيره من الشعر الحديث لتبيّن معالم السخرية، وهو موضوع يستحق دراسات متخصصة وبخاصة في الشعر الحديث.

إن مقطوعة أحمد مطر وغيرها تؤكد العلاقة القوية بين السخرية والمشاعر الذاتية؛ لذا ربط كثير من المحدثين الحديث عن السخرية بالحالة النفسية والوضع الاجتماعي، والنقد الذي يهدف إلى إصلاح الواقع، وهذا الربط يجعل الأدب الساخر أدباً جاداً

لا قائماً على الهزل، والفكاهة لأجل الإضحاك والمتعة، بل لأجل التعبير عن الألم، ومرارة المعاناة، وتوعية الجماهير بنقد الواقع أملاً في تصحيحه. لذا نجد المازني يرى أن الهزل الذي تتسم به السخرية في الظاهر إنما يحمل في باطنه الجِدّ، ولا يُقصد الهزل لذاته[90]، ونجد زهير محبوب يعد السخرية نوعاً من التلاعب بالألفاظ والدلالات، ويشترط أن يكون هذا التلاعب ضمن معيارية النقد اللاذع الذي يستعين بالفكاهة والإمتاع[91]، ويلتبس الأمر على نزار الضمور حين يعدّ التهكم سخرية، ويضع ما للسخرية للتهكم، وذلك حين وضح المقصود بالتهكم وقال:» هو السخرية التي تمتلئ بالمرارة والأسى، وتحمل أحياناً ألوان السخرية الفكهة الضاحكة الناقدة التي تهدف للإصلاح، وتتقدم مرات كثيرة نحو استخدام أسلوب التصوير المبالغ فيه (الكاريكاتوري) وهو وضع الشخص في صور مُضحكة كالمبالغة في وصف عضو من أعضائه ومحاولة تشويهه بالتهكم من ضخامة جسمه أو نحافته، وقصر القامة أو طولها وملامح الوجه والأنف..[92]. وممن ربط السخرية بالوضع الاجتماعي، والنفسي للأديب، وبالرغبة في النقد والتغيير وتعرية الفساد والظلم بوسائل الإضحاك، والتهكم والفكاهة عبد الحليم حفني[93]، وسعيد عزاب[94]، ونفين محمد شاكر[95] وحامد الهوال[96]، وجمال قشلاقي[97] وشعيب الغزالي[98]، وغيرهم كثير.

ولعل من أوضح التعريفات وأكثرها دقة للسخرية هي ما ذهب إليه شاكر عبد الحميد[99]حين وصفها بقوله: (وهي نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي، الذي يقوم على أساس انتقاد الرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية، الفردية منها والجمعية، من خلال عملية المراقبة والرصد، واستعمال وسائل التهكم والتقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك، أو محاولة التخلص من بعض الخصائص السلبية. وكذلك تعريف نعمان طه حين قال: إنها النقد الضاحك أو التجريح الهازئ وهي (النقد الضاحك أو التجريح الهازئ، لذا فالغرض هو النقد أوّلا ثمّ الإضحاك ثانياً، وذلك برسم صورة للإنسان مضحكة بواسطة التشويه، ذاك الذي لا يصل إلى حدّ الإيلام، أو تعظيم العيوب الجسمية أو العقلية حتى معاملته مع المجتمع، ويأتي كلّ ذلك بطريقة خاصة مباشرة) [100].

وقد جعل العقاد[101] من أهم عوامل السخرية أسباباً نفسية، كالقلق وعدم الاطمئنان ومعايشة الأديب للتناقضات التي يموج بها المجتمع، ينضاف إليها الذكاء الفطري ودقة الملاحظة.

الخاتمة

وهكذا، يمكن القول، إنّ مصطلح السخرية قد شهد تطوراً دلالياً منذ العصور الأدبية المتقدمة حتى يومنا هذا، فكان في أول أمره يذوب في غرض الهجاء، ويُعَبّرُ عنه به، وكان في الإسلام يدلّ على التعرض للصفات الخَلقية والخُلقية، لذا جرى منعه بين المسلمين، وقد تطور مصطلح السخُّرية عبر العصور، وقد توصل الباحث في خاتمة هذا البحث إلى عدد من الأمور يجملها على النحو الآتي:

♦ هناك فارق بين مصطلح الهجاء ومصطلح السُّخرية؛ فالأول غرضٌ مستقلٌ عرفه الشعراء قديماً وحديثاً، وفيه يهاجم الشاعر خصمه، في كلّ ما يُشعرُ الخصم بالأذى والألم، بينما السخرية هي أحد ألوان الهجاء المرّ، وهي انفعال نفسي ووجداني، ناتج عن شعور بالألم، يجسده الإنسان بعدد من الأنماط، كالنقد والإضحاك، ويرسم فيها الشاعر الساخر المعاني على عكس ما يتوقعه الإنسان المخاطب، في جوّ من التعريض، وهي أشدّ أنواع البلاغة عنفاً وفتكاً وعمادها النقد والإضحاك كما قال نعمان طه[102].

♦ لم تظهر السخرية بدلالتها الحديثة (النقد والإضحاك) في العصر الجاهلي، ولم يشع استعمال المصطلح كثيراً، لأنّ الغلبة في الاستعمال كانت للهجاء، على الرغم من وجود بعض الشواهد التي حملت ملامحها كما رأينا في مطلع الدراسة.

♦ لعل أكثر الألفاظ اتصالا بالسخرية وفق ما ورد في القرآن الكريم هما [الضحك – الاستهزاء]. وفي العصرين الأموي والعباسي والأندلسي والمملوكي، بقي الهجاء هو الغرض المستخدم في الأدب، رغم ما شاع فيه من الفكاهة والإضحاك والاستهزاء والدعابة والاستخفاف والتحقير، وبعض ألوان السخرية المرّة التي نجدها في بعض الشواهد في تلك العصور.

♦ إن الألفاظ [الاستهزاء – والاستخفاف– والتحقير – والتهكّم – والإذلال] – فيما نعتقدُ – هي مقصد من مقاصد السخرية، بينما [الإضحاك] إن لامس السياق النفسي الذي تصدر عنه السخرية، فهو وجه دلالي معادلٌ لها. وهو هنا مقيدٌ بهذا السياق، وغير مطلق في السياقات الأخرى. أما مجيء تلك الألفاظ بمعنى السخرية عند كثير من الناس والدارسين بخاصة، فمردّه العلاقة الدلالية بينها وبين السّخرية، كما أوضحنا في المتن.

♦ إنّ النقاد والبلاغيين الذين أشاروا لمصطلح السخرية في مؤلفاتهم لم يحدّوه بحدٍّ ظاهر واضح؛ بل أشاروا لبعض متعلقاته كما فعل أبو هلال العسكري حين تحدث في كتابه ديوان المعاني عن المبالغة، ووردت بعض العبارات التي تقترب من دلالات السخرية كقوله: (أهجى بيت...وأبلغُ ما قيل في الاحتقار ،...ومن الاستحقار الشديد، ...ومن بليغ ما جاء في الاستصغار ،ويشير إلى دلالتها أيضاً في كتابه (الصناعتين) حين يتحدث عن الاستطراد، والمبالغة، وتجاهل العارف. وكذا الأمر نفسه لدى ابن رشيق القيرواني، والسكاكي من بعده وغيرهم كثير من البلاغيين. أما المحدثون فقد ساعدهم في وضوح دلالة السخرية كثرة النصوص الأدبية الشعرية والنثرية، التي وُضِعتْ في ظروف سياسية واجتماعية معقدة، فلم يجد الشعراء وسائر الكتّاب أمامهم طريقاً للتعبير عن رفضهم للظلم والاستبداد والقهر غير السخرية، أما النقاد المحدثون فبعضهم لم يتخلص من الفهم القديم لهذا المصطلح، واعتباره هجاءً، غير أنّ الكثرة منهم أصبحت على إدراك كامل بالمعاني التي تدلّ عليها السخرية، وبالبواعث التي تقف خلفها، والمواقف التي تولد فيها، والخصائص التي تميزها عن أيّ لون من ألوان فنون الشعر، وذلك بعلاقتها الوطيدة بالحالة النفسية للأديب، ودرجة الانفعال التي تنبعث منه، وخبرته وتجربته في تحويل الموقف الجادّ إلى هزلٍ وفكاهة مُرّة، من خلال النقد الذي يبعث على التأمل والبحث عن خلاص .

♦ إنّ أبرز القدماء الذين اقتربوا من مفهوم دلالة السخرية بحداثتها اليوم، كان الشاعر جرير في قوله السابق الذكر لابنه (إذا هجوتَ فأضحك)، لأنّ الهجاء حين يمتزج بالإضحاك يكون سخرية، وكذا ابن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجني، فهؤلاء تحدثوا عن سمات أدب السخرية دون أن يذكروه بالنص...كما

أوضحنا في الدراسة.

♦ ارتبطت الدلالات القريبة من السخرية بالصورة الفنية، ولعبت دوراً كبيراً في رسم جمالية النظم في الأبيات التي تشتمل عليها، وذلك لأنها مؤلفة من علاقات لغوية متشابكة من الألفاظ والتراكيب وسحر البيان.

♦ امتازت الأشعار التي اشتملت على سخرية بالوضوح في الألفاظ والبساطة في التعبير، والاقتباس من آي القرآن الكريم أو الأمثال السائرة.

♦ اتصلت دلالات السخرية بموضوعات كثيرة أبرزها القضايا الاجتماعية والسياسية، وصوّرت موقف الشاعر من هذه القضايا في مواقف متعددة، بقصد الإضحاك أو الاستهزاء أو النقد.

إنّ هذا ليس نهاية الطريق في البحث، والتقميش عن دلالات السخرية، فالطريق ما زال بحاجة لدراسات أخرى لدى أكثر البلاغيين والنقاد قدماء ومحدثين، لكن يأمل الباحث أنّه استطاع بهذه العُجالة أن يقدّم إضاءات لتطور مفهوم السخرية دلالياً بين الماضي والحاضر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

1. أبو عودة، عودة خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ص45
2. أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، ص123، وينظر: وافي، علي عبد الواحد: علم اللغة، ص286، وينظر: حيدر، فريد: علم الدلالة، ص71، وينظر: جبل، عبد الكريم، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، ص33.
3. أولمان، إستيفن، دور الكلمة في اللغة، ص153
4. ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت 395هـ): الصاحبي، ص44
5. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت بعد 395هـ): الأوائل، ص35
6. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، ج2، ص138.
7. طه، نعمان محمد، السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري، ص14
8. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، المقاييس في اللغة، مادة (سَخِرَ).
9. سورة الجاثية، آية: 13
10. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، أساس البلاغة، مادة (سَخِرَ)
11. ابن منظور، محمد بن مكرم، جمال الدين، (ت 711هـ)، لسان العرب، مادة (سَخِرَ)
12. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت 817هـ)، القاموس المحيط، مادة (سَخِرَ)
13. الجوهري، إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (سَخِرَ).
14. ابن فارس، معجم المقاييس، مادة (ضَحِكَ)
15. الجوهري، الصحاح، مادة (ضَحِكَ).
16. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (ضَحِكَ).
17. الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (ضَحِكَ).
18. ابن فارس، معجم المقاييس، مادة (هزأ)
19. الجوهري، الصحاح، مادة (هزأ)
20. ينظر: مادة: (هَزَأَ) في لسان العرب، والقاموس المحبط، والمقاييس في اللغة، وغيرها من معاجم.
21. ابن فارس، معجم المقاييس، مادة (ذلل)
22. الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (ذلل)
23. حسين، محمد: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص87
24. الن منظور: اللسان، مادة (عَكّظ)
25. الضبي، أبو العباس محمد ابن المفضل، المفضليات، ص150
26. الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، ص125
27. الحطيئة، جرول بن أوس بن مالك (ت 45هـ) : ديوان الحطيئة،،ص79
28. ديوان الحطيئة، ص111
29. القرشي، محمد بن أبي الخطاب أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، في الجاهلية والإسلام، ص217
30. الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص346
31. البغدادي، عبد القادر عمر، (ت1093هـ) خزانة الأدب، ج2 ص170
32. ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله (ت672هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر، 1985م، ج1 ص85، وينظر: الأشموني، علي بن محمد بن عيسى(ت900هـ): شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج1، ص82 ، وينظر:
33. جمهرة أشعار العرب، ص714
34. الحجرات، آية 11
35. التوبة، آية 79
36. البقرة، آية 212
37. الأنعام، آية 10
38. هود، آية 38
39. المؤمنون، آية 110
40. ص، آية 63
41. الزمر، آية 56
42. الصافات، آية 12 و14
43. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (ت): فتح الباري شرح صحيح البخاري، المسألة:3897
44. ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت465هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 2/226
45. ضيف، شوقي، التطور والتجديد في العصر الأموي، ص242
46. ابن رشيق، العمدة، ج2 ص229،
47. المصدر السابق، ص236، وينظر: ابن مفرّغ، يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري (ت 69هـ): الديوان، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م، ص225.

48. ابن الرومي، الديوان، الديوان، ج1، ص 431
49. أبو نواس، أبو علي الحسن بن هانئ (ت199هـ) الديوان، ص159
50. المصدر السابق، ص245
51. المتنبي، الديوان، ص55
52. المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4 ص294
53. المصدر السابق، ج4 ،ص380 و 381
54. نفسه، ج 1 ،ص443
55. نفسه، ج2، ص350
56. العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دج2، ص220
57. البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد، الديوان، ص 261–259
58. ابن كثير، إسماعيل بن عمر البداية والنهاية، ج13، ص293
59. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص330
60. الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص292
61. المصدر السابق، ج4، ص292
62. البهاء زهير، أبو الفضل زهير بن محمد بن علي، الديوان، ص184
63. شمس الدين، محمد بن حسن بن علي (ت859هـ): الشفاء في بديع الاكتفاء، ص71
64. سورة الكهف، آية 29
65. العباسي، بدر الدين بن عبد الرحيم، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج1، ص182 ، وينظر: الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الفكر، بيروت، ط2، ج14،ص374
66. ينظر ما يأتي: ابن المعتز، عبد الله بن المعتز، البديع، ص58، نشر وتعليق، أغناطيوس كراتشقوفسكي، 1982.
– ابن منقذ، أسامة –البديع في نقد الشعر، ص 287
– الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 287
– ابن جعفر، قدامة أبو الفرج، نقد الشعر، ص146
– ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 2/642
67. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت 255هـ) ،ص13
68. ابن المعتز، البديع، ص62
69. ابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم (ت 276هـ) الشعر والشعراء، ص 458–459.
70. ابن جعفر، نقد الشعر، ص97
71. ابن رشيق، العمدة، ج2، ص227 وينظر: ابن أبي سلمى، زهير: الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م، ص65.
72. السكاكي، أبو يعقوب يوسف، (ت 626هـ)، مفتاح العلوم، ص314.
73. ينظر: معجم المقاييس في اللغة، والقاموس المحيط، واللسان، مادة (ضَحِكَ) مصادر سابقة.
74. ينظر: المصادر السابقة، مادة» خفّ « .
75. ينظر: الصادر السابقة، مادة (حَقَرَ)
76. ينظر: المصادر السابقة ، مادة هَزَأَ .
77. ينظر: المصادر نفسها، مادة (هَكَمَ).
78. ينظر: المصادر نفسها، مادة (فَكِه)
79. القيرواني، ابن رشيق، العمدة، ج2، ص229 ، مصدر سابق.
80. القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، ص327 – 331، مصدر سابق.
81. ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص388
82. المرجع السابق نفسه، 437 – 440
83. ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر، ص141
84. المازني، عبد القادر، حصاد الهشيم، ص 310 – 313
85. ينظر: حاوي، إيليا، فن الهجاء تطوره عند العرب، دار الثقافة للطباعة والنشر،(لبنان، 1998م).
86. حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، المطبعة النموذجية، (القاهرة، 1938م).
87. الهوال، حامد عبده، السخرية في أدب المازني، ص17
88. الراغب، نبيل، الأدب الساخر، ص9 – 11
89. مطر، أحمد: لافتات 6 ، 133
90. المازني، إبراهيم، حصاد الهشيم، مرجع سابق، ص313
91. زهير، محبوب: السخرية ودلالاتها في المجموعتين القصصيتين: (وفاة الرجل الميت)و (اللعنة عليكم جميعا) للسعيد بوطاجين، ص25
92. الضمور، نزار: السخرية والفكاهة في النثر العباسي، دار حامد (عمّان، 2012م) ص 66 – 68
93. حفني، عبد الحليم، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة 1987م) ص15
94. عزاب، سعيد، السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، ص60
95. شاكر، نيفين محمد، السخرية في العصر المملوكي الأول، م، ص4
96. الهوال، حامد، السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص48 – 50
97. قشلاقي، جمال طالبي، وآخرون، السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية، العدد 25، 2012م،
98. الغزالي، شعيب بن أحمد، أساليب السخرية في البلاغة العربية، المقدمة.
99. عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضحك، ص51
100. طه، نعمان: السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري،ص12
101. العقاد، عباس محمود، ابن الرومي، حياته من شعره، القاهرة، ص114
102. طه، نعمان، السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري، ص15، 16، مرجع سابق.

مصادر الدراسة ومراجعها

1. القرآن الكريم
2. الأعشى، ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، مكتبة الآداب، المطبعة

النموذجية، (مصر 1950م).

3. أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو الأمريكية، (مصر ط2).

4. أولمان، إستيفن: دور الكلمة في اللغة، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب (القاهرة (د.ت)) .

5. البغدادي، عبد القادر عمر: (ت1093هـ) خزانة الأدب، المطبعة السلفية ومكتبتها، (القاهرة، 1384هـ)

6. البهاء زهير، أبو الفضل زهير بن محمد بن علي، الديوان، دار المعارف، (مصر، ط2).

7. البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد: الديوان، دار المعرفة، (بيروت، 2007م).

8. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت231هـ): ديوان الحماسة، مطبعة التوفيق،(مصر، 1322هـ).

9. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت 255هـ) ، البخلاء ، دار صعب (بيروت، 1969م)

10. جبل، عبد الكريم، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية. (الإسكندرية. 1997م).

11. الجبوري، يحيى: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1986م)

12. ابن جعفر، قدامة أبو الفرج، نقد الشعر، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ط3، (د.ت)).

13. الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت 393هـ): تاج اللغة وصحاح العربية، (دار العلم للملايين، ط4، 1990م).

14. حاوي، إيليا : فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة للطباعة والنشر،(لبنان، 1998م).

15. حسين، محمد محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، المطبعة النموذجية، (القاهرة، 1938م).

16. الحطيئة، جرول بن أوس بن مالك (ت 45هـ) : ديوان الحطيئة، شرح ابن السكّيت، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1993م)

17. حفني، عبد الحليم: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة 1987م)

18. حيدر، فريد: علم الدلالة، مكتبة الآداب،(القاهرة، 2005م).

19. الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،-- تحقيق بكري شيخ أمين – (دار العلم للملايين. ط 1 – 1985) .

20. الراغب، نبيل: الأدب الساخر، مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة، (القاهرة، 2000م)

21. ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت465هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مكتبة الأسرة الأردنية، وزارة الثقافة، (عمان،2012)

22. ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج (ت284هـ): الديوان، دار الكتب العلمية، (بيروت، 2002م).

23. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، أساس البلاغة، دار المعرفة ،(بيروت، 1979م).

24. زهير، محبوب: السخرية ودلالاتها في المجموعتين القصصيتين «: وفاة الرجل الميت)و (اللعنة عليكم جميعا) للسعيد بوطاجين، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، (الجزائر، 2013).

25. السكاكي، أبو يعقوب يوسف: (ت 626هـ)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية (بيروت1987-م).

26. ابن أبي سلمى، زهير: الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1982م).

27. شاكر، نيفين محمد، السخرية في العصر المملوكي الأول، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة الخليل، 2009)م

28. 28شمس الدين، محمد بن حسن بن علي (ت859هـ): الشفاء في بديع الاكتفاء دار مكتبة الحياة، (بيروت، 1403هـ).

29. الأشموني، علي بن محمد بن عيسى(ت900هـ): شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1998م).

30. الأغاني، أبو الفرج (ت356هـ)، الأغاني، دار الفكر ، (بيروت، ط2)

31. الضبي، أبو العباس محمد ابن المفضل، المفضليات، دار الأرقم، (بيروت، ط1 ، 1998م).

32. الضمور، نزار: السخرية والفكاهة في النثر العباسي، دار حامد (عمّان، 2012م).

33. ضيف، شوقي: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، (مصر، 1961م).

34. ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، (القاهرة (د.ت)).

35. ضيف، شوقي: التطور والتجديد في العصر الأموي، (دار المعارف، 1963م).

36. طه، نعمان : السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري، القاهرة، (المطبعة التوفيقية، 1978م).

37. العباسي، بدر الدين بن عبد الرحيم: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، (المطبعة البهية، مصر)(د.ت)

38. عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك،(الكويت ، 2003)

39. عزاب، سعيد: السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، دار العلم والإيمان، (القاهرة، 2010م)

40. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله :(ت بعد 395هـ): الأوائل، مطبعة دار أمل، طنجة، (المغرب، 1960م).

41. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: (ت 852هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، (دار الريان للتراث، 1986م).

42. العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (دار الكتب المصرية، (د. ت))

43. العقاد، عباس محمود: ابن الرومي، حياته من شعره، القاهرة، (مؤسسة الهنداوي،2012م).

44. ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله(ت672هـ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، (دار الفكر، 1985م).

45. أبو عودة، عودة خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، مكتبة المنار، (الأردن، 1985م).

46. الغزالي، شعيب بن أحمد، أساليب السخرية في البلاغة العربية، جامعة أم

القرى، (السعودية، 1414هـ،)

47. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، المقاييس في اللغة، دار إحياء التراث العربي، (بيروت 1422هـ).

48. ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت 395هـ): الصاحبي، (المكتبة السلفية، 1910م).

49. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت 817هـ): القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، (بيروت – 1426هـ).

50. ابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم (ت 276هـ) الشعر والشعراء، دار الحديث (القاهرة، 1958م).

51. القرشي، محمد بن أبي الخطاب أبو زيد: جمهرة أشعار العرب، في الجاهلية والإسلام، لجنة البحوث والترجمة والنشر، (السعودية، 1979م).

52. القرطاجني، أو الحسن حازم(ت684هـ)، منهاج البلغاء، دار الكتب الشرقية، (تونس– 1966م).

53. قشلاقي، جمال طالبي، وآخرون: السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية، (د.م. 2012م)

54. الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م).

55. ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت، 1990م).

56. المازني، عبد القادر، حصاد الهشيم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة،2003).

57. المتنبي، أحمد بن حسين (354هـ)، الديوان ، شرح مصطفى سبيتي ، (دار الكتب العلمية، 1986).

58. مطر، أحمد: لافتات 6 ، (لندن، ط1 ، 1996م).

59. ابن المعتز، عبد الله بن المعتز، البديع، ص58، نشر وتعليق، أغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة،(بيروت، ط 3 ، 1982).

60. المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، (بيروت، 1968م).

61. ابن منظور، محمد بن مكرم، جمال الدين، (ت 711هـ)، لسان العرب، (دار صادر، بيروت، 1968م).

62. ابن منقذ ، أسامة – البديع في نقد الشعر ، دار الكتب العلمية – (بيروت لبنان – ط 1 – 1987) .

63. أبو نواس، أبو علي الحسن بن هانئ (ت199هـ) الديوان ، المطبعة العمومية، (مصر، 1898م).

64. الهوال، حامد عبده: السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة 1982م).

65. وافي، علي عبد الواحد: علم اللغة، مكتبة نهضة مصر، (القاهرة– ط4،د.ت).